الباب الخامس

في جواب أرباب هذا القول لأصحاب القول الأول

قالوا : أما قولكم : إن قولنا هو الذي فطر الله عليه عباده بحيث لا يعرفون سواه ، فالمسألة سمعية لا تعرف إلا بأخبار الرسل ، ونحن وأنتم إنما تلقينا هذا من القرآن ، لا من المعقول ولا من الفطرة ، فالمتَّبع فيه ما دلَّ عليه كتاب الله وسنة رسوله ، ونحن نطالبكم بصاحب واحد ، أو تابع أو أثر صحيح أو حسن ، يصرِّح بأنها جنة الخلد التي أعدَّها الله للمؤمنين بعينها ، ولن تجدوا إلى ذلك سبيلاً ، وقد وجدنا من كلام السلف ما يدل على خلافه ، ولكن لما وردت الجنة مطلقة في هذه القصة ، وافقت اسم الجنة التي أعدّها الله لعباده في إطلاقها ، وبعض أوصافها ، فذهب كثير من الأوهام إلى أنها هي بعينها ، فإن أردتم بالفطرة هذا القدر لم يفدكم شيئاً ، وإن أردتم أن الله فطر الخلق على ذلك ، كما فطرهم على حسن العدل وقبح الظلم ، وغير ذلك من الأمور الفطرية ، فدعوى باطلة ، ونحن إذا رجعنا إلى فطرنا لم نجد علمها بذلك ، كعلمها بوجوب الواجبات ، واستحالة المستحيلات .

وأما استدلالكم بحديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقول آدم : « وهَلْ أخرجكُم منها إلا خطيئةُ أبيكم ؟ »[1] فإنما يدل على تأخر آدم [عليه السلام] عن الاستفتاح للخطيئة التي قد تقدمت منه في دار الدنيا ، وأنه بسبب تلك الخطيئة حصل له الخروج من الجنة ، كما في اللفظ الآخر : إني نهيت عن أكل الشجرة فأكلت منها ، فأين في هذا ما يدل على أنها جنة المأوى بمطابقةٍ ،

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥) في الإيمان : باب (٨٤) أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

أو تضمن أو استلزام ، وكذلك قول موسى له : « أخرجتَنا ونفسَكَ منَ الجنةِ »[1] فإنه لم يقل له : أخرجتنا من جنةِ الخلد .

وقولكم : إنهم خرجوا إلى بساتين من جنس الجنة التي في الأرض ، فاسم الجنة وإن أطلق على تلك البساتين، فبينها وبين جنة آدم ما لا يعلمه إلا الله، وهي كالسجن بالنسبة إليها، واشتراكهما في كونهما في الأرض لا ينفي تفاوتهما أعظم تفاوت في جميع الأشياء.

وأما استدلالكم بقوله تعالى : ﴿ وقُلْنا اهبِطُوا ﴾ [البقرة : ٣٦] عقيب إخراجهم من الجنة ، فلفظ الهبوط لا يستلزم النزول من السماء إلى الأرض ، وغايته أن يدل على النزول من مكانٍ عالٍ إلى أسفل منه ، وهذا غير منكر ، فإنها كانت جنة في أعلى الأرض ،فأُهبِطوا منها إلى الأرض .

وقد بينا أن الأمر كان لآدم [عليه السلام] وزوجه وعدوهما ، فلو كانت في السماء لما كان عدوهما متمكناً منها بعد إهباطه الأول لما أبى السجود لآدم [عليه السلام] . فالآية أيضاً من أظهر الحجج عليكم ، ولا تغني عنكم وجوه التعسفات والتكلفات التي قدرتموها ، وقد تقدمت .

وأما قوله تعالى : ﴿ ولكُمْ في الأرضِ مُستَقرٌ ومَتَاعٌ إلى حينٍ ﴾ [البقرة : ٣٦] ، فهذا لا يدل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض ، فإن الأرض اسم جنس ، وكانوا في أعلاها وأطيبها وأفضلها ، في محل لا يدركهم فيه جوع ، ولا عُري ولا ظمأ ولا ضحى ، فأُهبطوا إلى أرض يعرض فيها ذلك كله ، وفيها حياتهم وموتهم ، وخروجهم من القبور ، والجنة التي أسكناها لم تكن دار نَصب ولا تعب ولا أذى ، والأرض التي أهبطوا إليها هي محل التعب والنصب ، والأذى وأنواع المكاره ، وأما قولكم : إنه سبحانه وتعالى وصفها بصفات لا تكون في الدنيا ، فجوابه : إن تلك الصفات لا تكون في الأرض التي أهبطوا إليها منها وأما قولكم : إن آدم [عليه السلام] كان يعلم أن الدنيا فانية منقضية ، فلو كانت الجنة فيها لعلم كذب إبليس في قوله : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩) في الأنبياء : باب (٣١) وفاة موسى وذكره بعد .

على شجرةِ الخلْدِ ؟ ﴾ [طه : ١٢٠] ، فجوابه من وجهين :

أحدهما : أن اللفظ إنما يدل على الخلد ، وهو أعم من الدوام الذي لا انقطاع له ، فإنه في اللغة : المكث الطويل ، ومكث كل شيء بحسبه ، ومنه قولهم : رجل مخلّد ، إذا أسن وكبر ، ومنه قولهم لأثافي الصخور : خوالد . لطول بقائها بعد دروس الأطلال . قال :

إلا رماداً هامداً دفعتْ عنه الرياحَ خوالدُ سُحْم[1]

ونظير هذا إطلاقهم القديم على ما تقادم عهده ، وإن كان له أول ، كما قال تعالى : ﴿ كالعُرْجُونِ القَديم ﴾[2] [يس : ٣٩] ، ﴿ وإنَّكَ لفي ضلالكَ القديم ﴾ [يوسف : ٩٥] ، ﴿ إفْكٌ قَديم ﴾ [الأحقاف : ١١] وقد أطلق تعالى الخلود في النار على عذاب بعض العصاة ، كقاتل النفس ، وأطلقه النبي ﷺ على قاتل نفسه .

الوجه الثاني : أن العلم بانقطاع الدنيا ، ومجيء الآخرة ، إنما يعلم بالوحي ، ولم يتقدم لآدم عليه الصلاة والسلام نبوة يعلم بها ذلك . وهو وإن نبأه الله سبحانه وتعالى ، وأوحى إليه ، وأنزل عليه منها صحفاً ، كما في حديث أبي ذر ، لكن هذا بعد إهباطه إلى الأرض بنص القرآن ، قال تعالى : ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكُم لبعض عدوٌّ فإمَّا يأتينَّكُم مني هُدىً فمن اتَّبَعَ هُدايَ فلا يُضلُّ ولا يَشقىٰ ﴾ [طه : ١٢٣] وكذلك في سورة البقرة : ﴿ قلنا اهبطُوا منها جميعاً فإما يأتينَّكُم مني هُدىً ﴾ [البقرة : ٣٨] .

وأما قولكم : إن الجنة وردت معرفة باللام ، غير مراد بها جنة الخلد قطعاً ، كقوله تعالى : ﴿ إنَّا بلوناهُم كما بلَونا أصحابَ الجنةِ إذْ أقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها[3] مُصبحينَ ﴾ [القلم : ١٧] وقولكم : إن السياق ها هنا دلّ على أنها جنة في الأرض .

---

(١) أورده في اللسان في مادة : خلد . سُحم : سود ، جمع : أسحم .

(٢) العرجون : القضيب المنحني .

(٣) الصرم : القطع .

قلنا : والأدلة التي ذكرناها دلت على أن جنة آدم عليه السلام في الأرض ، فلذلك صرنا إلى موجبها ، إذ لا يجوز تعطيل دلالة الدليل الصحيح .

وأما استدلالكم بأثر أبي موسى : أن الله أخرج آدم [عليه السلام] من الجنة وزوده من ثمارها . فليس فيه زيادة على ما دلّ عليه القرآن ، إلا تزوده منها ، وهذا لا يقتضي أن تكون جنة الخلد .

وقولكم : إن هذه تتغير ، وتلك لا تتغير ، فمن أين لكم أن الجنة التي أسكنها آدم كان التغير يعرض لثمارها ، كما يعرض لهذه الثمار ، وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : « لولا بنو إسرائيل لم يَخْنَز اللَّحم »[1] أي : لم يتغيَّر ولم ينتن . وقد أبقى الله سبحانه وتعالى في هذا العالم طعام العزيزِ وشَرابَهُ مئة سنة لم يتغيرْ.

وأما قولكم : إن الله سبحانه وتعالى ضمن لآدم عليه السلام إن تاب أن يعيده إلى الجنة . فلا ريب أن الأمر كذلك ، ولكن ليس يعلم أن الضمان إنما يتناول عوده إلى تلك الجنة بعينها ، بل إذا أعاده إلى جنة الخلد ، فقد وفَّى سبحانه بضمانه حقَّ الوفاء ، ولفظ العود لا يستلزم الرجوع إلى عين الحالة الأولى ، ولا زمانها ولا مكانها ، بل ولا إلى نظيرها كما قال شعيب لقومه : **﴿ قدِ افترينا عَلىٰ الله كَذِباً إنْ عُدْنا في مِلَّتكُم بعد إذْ نَجَّانا الله مِنها وما يكونُ لنا أن نَعُودَ فيها إلاَّ أنْ يَشَاءَ الله ربُّنا﴾** [الأعراف : ٨٩]، وقد جعل الله سبحانه المظاهِرَ[2] عائداً بإرادته الوطء ثانياً ، أو بنفس الوطء ، أو بالإمساك ، وكل منها غير الأول لا عينه ، فهذا ما أجابت به هذه الطائفة لمن نازعها .

---

(١) أخرجه مسلم (٦٣) في الرضاع : باب (١٩) لولا حواء لم تخن أنثى زوجها .

(٢) المظاهر: هو الذي يقول لزوجته أنت علي كظهر أمي.